مجلة صوت الموسيقا، المركز الوطني للبحوث والدراسات الموسيقية- طرابلس، **2013**م.

بقلم / د .عبد الستار العريفي سالم بشّـيـّه

(ثقافة شيخ المالوف)

دفاع عن شيوخ فن المالوف

ولقد اخترت هذا الموضـوع لدفع شـبهة أو شـبهات منها : وصـف شـيوخ فن المالوف في طرابلس بالأمية والجهل ، وعدم المعرفة بدقائق الفنون ، وألصـــقوها بهم ، وقد رددها بعض المختصـــين وغيرهم . وحقيقة الأمر أن الأمية ظاهرة عمت العالم ، خاصـــة في تلك الســـنوات التي عاشـــها العالم تحت رهبة الخوف ، وصوت المدافع والبنادق ، وما وقع من القتل والتشريد لعض الشعوب ، من وراء تطاحن بعض الدول في حربها بعضِـها بعضًـا ، من أجل السـيطرة على أجزاء من العالم . فمن الحرب العالمية الأولى إلى ما حاق ببعض الشـعوب وبلدانهم من اسـتعمار القوى الأجنبية لهم دون أي وجه حق ، مع ما وقع من حروب أهلية وفتن داخلية ، ثم الحرب العالمية الثانية ، وما نتج عنها من مسائل وقضايا .

وللإنصاف أقف في هذا المقال دفاعا عن شيوخنا في فن المالوف الذين بذلوا جميع ما في وسعهم لينقلوا لنا هذا الفن كما وصـلهم دون تحريف مقصـود ، أو تشـويش ، وفي الحقيقة لسـنا ندري الغرض الذي يجعل الطاعنين يبدون هذا الكلام ، ســوى الحكم الذي لم يســبقه الاســتقراء لعينات الشــريحة المتحدث عنها ، ومنهم من يكرر كلام غيره ، دون نظر ، أو تفكير .

ونعرض في هذه الوريقات ثقافة شيخ فن المالوف في طرابلس ، وتنوع معارفه ، مع إجادته لأمور دقيقة يفتقدها بعض المتخصـــصـــيين في يومنا هذا ، بل هناك كثير من التراث الفني قد صـــار معهم في قبورهم ، وأمسـت من مفقودات الفنون ،كما سـنذكر ، وأقسـم حديثي إلى شـقين ؛ الأول : تنوع ثقافة شيخ المالوف ، والثاني : دفع شبهة الأمية عنهم .

الشق الأول : تنوع ثقافة شيوخ المالوف :

ونقصد بهذا العنوان مجموع المعارف الحاصلة لشيخ المالوف من خلال هذا الفن ، وهي كالتالي :

1 – المعارف الموسيقية :

من البدهي أن هذا الفن من الفنون ذات العلاقة الوثيقة بالموسـيقى ، ولهذا السـبب يجب على الوالج فيه الإلمام بالمعارف الموسيقية ، والأخذ منها بنصيب وافر ، فمن ذلك :

أ) المعرفة بالطبوع الموسـيقية ، وهي معرفة السـلَّم الموسـيقي لكل طبع وهو مايعرف لدى المشـارقة بالمقام الموسيقي ، والمشهور منها والمستعمل في نوبات المالوف ثمان طبوع رئيسة ، وأخرى فرعية متداخلة بينها ،كما يجب على شيخ المالوف أن يكون ملما بمعرفته للتسـميات المشـرقية والمغربية الأندلسـية لتلك الطبوع فمنها : طبع النوى ، والراصـد ، ورصـد الذيل ، والحسـين وفروعه ، والسـيكاه ، والاصـبهان ، والصـــبا ، والعجم ، والمذموم ، والأصـــبعين ، أما المشـــرقية فمنها ما يوجد لها مقابل مثل : الحجاز ،

والراســت ، الدوكاه ، الجهاركاه ، النهاوند ، العشــاق ، والكرد ، وغير ذلك من المقامات الموســيقية ، والتفرقة بين نغمات بعضها دقيقة جدا ، مع إجادتهم في أدائهم للاستخبارات الارتجالية قبل نزول النوبة .

ومن المعارف الموســيقية **المعرفة بالإيقاعات الوزنية** : وهذه المعرفة من الضــروريات اللازمة لشــيخ المالوف حيث ترتبط ارتباطا وثيقا بالمقام والصـنعة ، وأن كل :(دم أو تك أو اس) له موضـع محدد من النص الأدبي ؛ فمنهم من ضـبط دخول الصـنعات لكل النصـوص المحفوظة في أماكنها على إيقاعاتها المستعملة ، وإجادتهم لنقر وضبط الإيقاع المستعمل في فن المالوف والموشحات ، والقصائد فمن ذلك إيقاع المصـدر ، والمركز ، والبرول ، ومعرفة مايدخل من الصـنعات تحت كل إيقاع بل أبلغ من ذلك دقة معرفة ما يدخل تحت المصـدر الأول ، والثاني ، والمركز الأول ، والثاني ، والبرول الأول والثاني ، والأختام ، مع بيان تسمية محلية للدم الأول والدم الثاني حسبما سمعناه من شيوخنا بـ (المصمودي ، والقمودي) ، مع إيقاعات أخرى مثل الدارج : ومنه المخمس والمربع ، وإيقاع الربايبي ، وإيقاع الوحدة ، وإيقاع القتاقفتي ، وغيرها من إيقاعات مستعملة في فنون الزوايا الصـوفية ، وبالإضـافة إلى ما ذكر من معارف موسيقية وإسـهاماتهم في الجانب الموسـيقي إتقان بعضـهم لنقر الآلات المسـتعملة في فن المالوف مثل : الطار العيســاوي ، الطبل (النوبة) ، وآلة النقرة ، أما الطبلة فهي من الضـروري إجادة نقرها لأنها الآلة المستعملة في نوبة فن المالوف ، وينقرها الشيخ بنفسه في حالة الأداء داخل بيت الزاوية .

ومما تجدر الإشـارة إليه معرفة أولئك الشـيوخ **اختلاف الصنعات المستعملة للنص الواحد** ، حيث نجد بعض النصـوص مسـتعملة في مقام واحد ، وصـنعة واحدة إلا أنه توجد فروق بسـيطة أثناء الأداء النغمي لها ، وهذا الأمر خفي جدا حتى عند بعض الممارســين لهذا الفن ، فمن ذلك مثلا : استفتاح ياخير هادي ، وطالع : بالله ياعشية ، واستعمال الآهات ، والليليات ، والعينيات ، والمدود ، داخل النصوص ، تكملة للفراغات الموجودة ، أو كنوع من الفواصل الموسيقية بالصوت البشري عوضا عن استخدام الآلة الموسيقية ، وغير ذلك .

وأشـير أيضـا إلى أن بعضـهم له **مشـاركة في تلحين** بعض النصـوص ، أو **تهذيبها** ، أو **تركيبها** على صنعات نصوص أخرى ، لاتفاقها في الوزن الشعري ، أو تقاربه معه .

ومما يلحق بالمعارف الموسـيقية ؛ معرفتهم بالمصطلحات الفنية الخاصـة بنصـوص فن المالوف وتدوينه ، وما يتبعه من تراث الزوايا الصــوفية ؛ ومثال ذلك : الدَّخْلَةُ ، والطَّالِعُ ، والمرّجع (الرجوع) ، والمكَرَّرُ ، وغَيْرُهُ من طَبْعِهِ ، والمكّاوي ، والموشح ، والزجل ، وغير ذلك .

2 – المعارف الأدبية :

مما يدخل تحت هذا العنوان مثلا : حفظ النصوص وغزارتها عند بعضهم ، واختلاف رواية بعض ألفاظ المالوف ، مع عدم فساد المعنى ، مع ما يوجد من ثروة لغوية في نصوص المالوف ، ونشير إلى أن

هناك من قرض الشعر الفصيح ، أو الزجلي ، أوشارك في نظم نصوص أدبية أضيفت للموروث الأدبي ، وحفظهم لنصوص فنون أخرى مثل : الموشحات ، والأغاني ، والأدوار المصرية ، والقصائد المولدية ، وما ينشد خلالها من أشعار في مدح النبي ﷺ ، وحفظهم ل بعض نصوص المدائح النبوية مثل : نصوص البغدادي ، وقصائد البوصيري (البردة ، والمحمدية ، والمضرية ، والهمزية) ، وغيرها .

ومما ينطوي تحت المعارف الأدبية **الذوق الفني** في ترتيب نصوص النوبة الواحدة ، وهو نوع من الاختيارات الأدبية ، فاختيار المرء قطعة من عقله ، حيث نجد أن بعض شيوخ المالوف يرتبون نصوص نوبة غزلية أو مدحية ، محاولا أن يربط النوبة برابط الوحدة الموضوعية ، التي يقررها بعض نقاد الأدب في العمل الفني ، ومثل هذه الوحدة موجود في فن النوبة الأندلسية خاصة عند المغاربة ، وهذا جانب نقدي مهم . ومما يلفت النظر في هذا الجانب النقدي أنهم كانوا يفرقون بين نصوص الأفراح ، ونصوص الموكب الجنائزي ما عرف بينهم بـ(**الششتري**) ، فلكل مقام مقال ، بل بلغت الدقة ببعضهم أن نوبة (**دمعي جرى**) ، وهي من مقام الصبا لايتغنى بها في الفرح من جانبين ، الجانب الأول : أن مقامها الموسيقي الشجي الذي غالبا ما يعبر به عن الحزن ، والثاني : مرجعه بعض كلمات النص التي تقول :

دمعي جرى عن صحن خدي كالمطر ، والروح من فرط الهوى في هاوية

وهذا رأي الشيخ محمد أبو ريانة رحمه الله ، وإن أصاب الشيخ في بعض الجوانب ؛ إلا أن بقية النص في دلالة على الطرب ، والغناء ، بل أن الزجال فيه يصف مجلس أنس بين الخلان والأحباب ، وقد يُحتج على بعض شيوخ الفن غير المتمرسين في تَغَنّيهم في توصيل العريس بمثل نص : الله الله أنت الرب الأعلى ، أو طيبوا المنازل ، وغيرها ؛ مما جرت به العادة أن تقال في الموكب الجنائزي .

أما من خلال **الروايات الشفهية** للنصوص ، والتي تحدث اختلافا في المعنى ، فكان لكل شيخ مدرسته الخاصة به من حيث حفظه لنصوص هذا الفن مع الاختلاف في بعض ألفاظه من شيخ إلى آخر ، مما جعل السفائن المروية والمكتوبة في فن المالوف الليبي مختلفة في بعض ألفاظها ، وإن تقاربت معانيها .

ومما يدل على الذوق الذي كان يمتلكه بعض شيوخ هذا الفن تحويرهم لكلمات في نصوص المالوف منها على سبيل المثال : (يافتان ، يامنصان) ، إلى قولهم (**ياحنان يامنان**) ، فقلبت الجملة من أسلوب النداء إلى أسلوب الدعاء ، وتحويرهم لقول ابن سهل الإشبيلي : (**الماء للهفان** واليسر بعد العسر * وجنة الرضوان بعد **العذاب الأكبر**) ،

إلى قولهم : (**العفو للرحمن** واليسر بعد العسر وجنة الرضوان بعد **الرضا الأكبر**)

وتحويرهم أيضا لكلمة : (من أبيض وأحمر وأسود) إلى **أسعد** ، جلبا للتفاؤل ، و دفعا للتشاؤم ، مع تضييع المحور الأساسي للنكتة البلاغية فيها : وهي **جلب النظائر** ، ويسمى **مراعاة النظير** أيضا ؛

وهو معروف في فنون علم البديع ومحسناته ، أو قلبهم لنص غزلي وهو قول الناظم : (الله يصبر من عشق وحدة صبية تاهت عليَّ) ، إلى قولهم : (الله يصبر من عشق : **خير البرية** ، أو**الكعبة** البهية ، أو **طيبة البهية**) ، بتكرارها مرتين ، وغيرها ، مما أشرت إليه في كتابي فن المالوف في ليبيا.

3 – المعارف الدينية

ولعل من أوائل المعرفة الدينية حفظ بعض شيوخ المالوف لكتاب الله ، أو لجزء منه ، أو لآيات يقيم بها صلاته المفروضة ، بل منهم من قام بتدريسه مدة طويلة من الزمن ، ومنهم من تولى خطابة الجمعة ، والعيدين في بعض المساجد ، ومنهم من تولى إمامة الأوقات فيما جاوره من المساجد.

كما نتعرف إلى بعض المعارف الدينية من خلال النصوص المحفوظة لدى شيوخ المالوف ، فمنها : **معرفة** عقائد التوحيد ، وما ينافيها ؛ ولعل هذا من أهم ما يتعرف عليه الشيخ من معارف دينية من خلال قراءة أحزاب الطريقة مثل : حزب سبحان الدائم ، أو حزب الفلاح ، وبعض صيغ الذكر ، وغيرها ، أو من خلال نصوص بعض القصائد المستعملة في نوبات المالوف مثل :

(إلهنا في الوجود دائم حي على الكائنات قائم)

وفي بقية هذا النص بيان لكل ما يليق بجلال الله من صفات ، وما يجب اعتقاده فيه سبحانه جل وعلا ، أو حفظهم لنص أبي الحسن الششتري (610-666 هـ) ، وهو مستعمل في استفتاح نوبة إيقاع البرول بمقام الرصد من النوبات الليبية :

يا من بدا ظاهر لما استتر

واختفى باطن لما ظهر

والذي نقف فيه على حقيقة التوحيد ، وقمته عند هذا الزجال ، والذي يرميه بعض المخالفين للتصوف بتهمة الزندقة ، فيقول فيه :

ظهرت لم تخفَ على أحد

وغبت ولم تظهر لكل حد

فأنت هو الواحد بلا أحد

واحد بلا ثان تحقيق خبر

ما زاد عن الواحد عنك ظهر

كما كان لبعضهم معرفة **بأحكام العبادات** ، وكانت له حلقة درس لعامة الناس واعظا ، وكما أخبرني الشيخ أحمد الحاراتي : أن الشيخ جميل القاضي كان يفتتح جلسته التعليمية لفن المالوف ببيان بعض أحكام الفقه من متن ابن عاشر ، وقد أخبرني الشيخ محمد أبو جراد : أن الشيخ محمد أبوريانة ، كان يفتتح جلسته التعليمية لفن المالوف ببيان بعض أحكام الفقه من متن ابن عاشر ، أوكتاب دروس الناشئة الإسلامية للشيخ على أمين سيالة .

وقد تكون المعرفة من وقائع **السيرة النبوية** من خلال النصوص المستعملة في فن المالوف ؛ منها : معرفة نسب الرسول ، أو صفاته الخَلْقِيَّة والخُلُقِيَّة ، إلى معرفة بعض معجزاته ، كالواردة في قصة المولد البرزنجي المستعملة لديهم في الزوايا العيساوية ، بل من شيوخ المالوف من يحفظ قصة المولد كاملة ، أو بعض فصولها ، وتعد القصة من البلاغة بمكان.

ومن المعارف الدينية معرفة أولئك الشيوخ لكثير من كرامات الصالحين ، ومعرفتهم تلقين المريدين الطريقة العيساوية ، والرفاعية ، والعروسية ، فبعضهم قد أجيز بسند من الطرق المذكورة ، وهذا يستلزم معرفة أوراد تلك الطرق ، والتسابيح التي يسلك نهجها المريد كل على حسب حالته ، كما يرتبط شيخ الطريقة بمعرفته لتفسير منامات مريديه ، أو يكون أولئك الشيوخ من مريدي الطرق .

4 – المعارف التاريخية

ولانقصد أنهم كانوا من علماء التاريخ ، أو مؤرخين ، ولكن مما يروونه عن شيوخهم السابقين من مواقف ، ومعلومات ، وكيف نقلوا لنا عنهم هذا الفن الرائع ، بنغماته ، ونصوصه ، فكل شيخ منهم شاهدٌ على حالة الفن في عصره .

5– المعارف الحرفية :

لكل شيخ من شيوخ المالوف حرفة يتكسب منها ، فمنهم : الفلاح ، والبحار ، والنحاس ، والحائك ، والبناء ، والنجار ، وغيرها من الحرف التي يحتاج إليها المجتمع ، وكانت سائدة قبل معرفة الوظائف الحكومية ، وقبل انتشارها في المجتمعات العربية ، والحقيقة أن تلك الحرف لها أصولها ، ومصطلحاتها الخاصة بها ، ولهذا أدرجتها ضمن المعارف التي يتحلى بها شيوخ المالوف.

الشق الثاني : الدفاع عن أُمِّيَّةِ شيخ المالوف :

مما تم عرضه في الشق الأول من هذا البحث وجدنا من شيوخ المالوف : حملة لكتاب الله ، ومنهم من سجل المالوف في سفائن ، ومنهم من دَرَس في المدارس ، ومنهم من قام بالتدريس ، ومنهم المجُاَز في سند ، أو أكثر ؛ من أسانيد الطرق الصوفية ، ومنهم من هو قائم ومحافظ على أوراد الطريقة ، ومنهم من له معرفة في علم الجداول ، والأوفاق ، وضرب الرمل ، وغيرها من علوم الروحانيات ، ومن المزايا التي تميز بها شيوخ هذا الفن ، مع محدودية معرفة بعضهم بالقراءة والكتابة ، أنهم حفظوا لنا الكم الهائل من نصوص المالوف ، والموشحات ، والقصائد ، مع أوزانها ونغماتها ، كما أنهم برعوا في تقديمها ، وتوصيلها إلى الأجيال اللاحقة ، ولو تفردوا بهذه المزية وحدها لكفتهم ، فذلك كما يقول المثل جهد المقل القاصر ، ليس بقليل ، إن الظروف المعيشية التي عاشتها الشعوب في أوائل القرن ومنتصف القرن العشرين ؛ هي ظروف مأساوية ، ومع ذلك كله حاولوا بكل ما أوتوا من همة وعزم أن يخلدوا هذا الفن الرائع ، كما لا نغفل جهود الجهات المسؤولة ، الرسمية ، والأهلية ؛ في تكريم رموز هذا الفن ماديا ومعنويا .

كلمة أخيرة

لما ذكرته سابقا فثقافة شيخ المالوف قد تنوعت لدى شيوخنا الأوائل ، واختلفت نسبيا بينهم مع مراعاة ظروفهم وأحوالهم التي مروا بها ، فمما يجب على شيخ المالوف في عصرنا أن يتعرف على كل ما في وسعه من معارف تهمه في أداء مهمته الفنية ، ويتزود منها بقدر كاف ، محاولا قدر الإمكان الإلمام بأداء المقامات الموسيقية ، ومعرفة دقائقها وإتقانها ، ومعرفة تسمياتها المشرقية والمغربية ، وأن يلم بفنون أخرى مثل : القصائد المستعملة في الموالد ، والأذكار ، والموشحات ، والأدوارالمصرية ، والقدود الشامية الحلبية ، مع معرفة أي فن غنائي من شأنه أن يرفع من القيم الفنية لدى شيخ المالوف ، وكلما اهتم الشيخ وأجاد مسألة فنية زاد تميزا ، فإذا أتقن الشيخ نقر آلة إيقاع ، أو آلة وترية ، أو نحاسية ، أو كان مهتما بمجموع الفنون المذكورة زادت قيمته فنيا ، فشيخ المالوف هو من تنوعت معارفه بكل ما ذكر ، بحيث لا يجعل أهتمامه منصبا على نوع واحد من الفنون ، أو على آلة واحدة ، والحقيقة أن من اجتمعت فيهم هذه الخصال قلة ، ولكن توجد بينهم نسبة وتناسب في الجمع بين هذه الفنون .

وأخيرا فإن المركز القومي لبحوث ودراسات الموسيقى العربية يسعى حثيثا لكي يجمع ما بقي من آثار ومعلومات على شيوخ فن المالوف في ليبيا ، والذين أمسوا اليوم في طي النسيان ، لكي يحفظوا لهم حقوقهم ، ويعرفون بهم الجيل القادم ، نتمنى للمركز القومي النجاح في مثل هذ المشاريع التوثيقية ، لفنون البلاد ورجالها .

وحتى نلتقي